المعقِد الثَّامن
لزوم التَّأنِّي في طلبه، وترك العجلة

فإنَّ تحصيل العلم لا يكون جملةً واحدةً؛ إذ القلب يضعف عن ذلك؛ وإنَّ للعلم فيه ثِقَلًا كثِقَل الحجر في يد حامله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المُزمِّل] أي القرآن، وإذا كان هٰذا وصف القرآن الميسَّر ـ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القَمَر: الآية ١٧]؛ فما الظنُّ بغيره من العلوم، وقد وقع تنزيل القرآن رعايةً لهٰذا الأمر مُنَجَّمًا مفرَّقًا باعتبار الحوادث والنَّوازل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾ [الفُرقان].

وهٰذه الآية حجَّةٌ في لزوم التَّأنِّي في طلب العلم، والتَّدرُّج فيه، وترك العجلة؛ كما ذكره الخطيب البغداديُّ في «الفقيه والمتفقِّه»، والرَّاغب الأصفهانيُّ في مقدِّمة «جامع التَّفسير».

ومن شعر ابن النَّحاس الحلبيِّ قوله ـ رحمه الله ـ:

اليومَ شيءٌ وغدًا مثلُهُ
من نُخب العلم الَّتي تُلْتَقطْ
يُحصِّل المرء بها حكمةً
وإنَّما السَّيل اجتماع النُّقَطْ

قال شعبة بن الحجَّاج: «اختلفتُ إلىٰ عمرو بن دينارٍ خمسَمائةِ مرَّةٍ، وما سمعت منه إلا مائةَ حديثٍ، في كلِّ خمسة مجالسَ حديثٌ».

وقال حمَّاد بن أبي سليمان لتلميذٍ له: «تعلَّم كلَّ يومٍ ثلاثَ مسائلَ، ولا تزدْ عليها شيئًا».

ومقتضىٰ لزومِ التَّأنِّي والتَّدرُّجِ: البَداءةُ بالمتون القصار المصنَّفةِ في فنون العلم، حفظًا واستشراحًا، والميلُ عن مطالعة المطوَّلات التي لم يرتفعِ الطَّالب بعدُ إليها.

ومن تعرَّض للنَّظر في المطوَّلات فقد يجني علىٰ دينه، **وتجاوزُ الاعتدال في العلم ربَّما أدَّىٰ إلىٰ تضييعه**، ومن بدائع الحِكَم قول عبد الكريم الرِّفاعيِّ ـ أحد شيوخ العلم بدمشقَ الشَّام في القرن الماضي ـ: «**طعام الكبار سمُّ الصِّغار**».

وصدق؛ فإنَّ الرَّضيع إذا تناول طعام الكبار، مهما لذَّ وطاب، أهلكه وأعطبه، ومِثلُه من يتناول المسائلَ الكبار من المطوَّلات، ويُوقفُ نفسه مع ضعف الآلة علىٰ خلاف العلماء، وتعدُّدِ مذاهبهم في المنقول والمعقول.

المعقِد التَّاسع

الصَّبر في العلم تحمُّلًا وأداءً

إذ كلُّ جليلٍ من الأمور لا يُدرك إلا بالصَّبر، وأعظم شيءٍ تتحمَّلُ به النَّفسُ طلبَ المعالي: تصبيرُها عليه؛ ولهذا كان الصَّبر والمصابرة مأمورًا بهما لتحصيل أصل الإيمان تارةً، ولتحصيل كماله تارةً أخرىٰ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: الآية ٢٨].

قال يحيىٰ بن أبي كثير في تفسير هٰذه الآية: «هي مجالس الفقه».

ولن يُحصِّل أحدٌ العلمَ إلَّا بالصَّبرِ.

قال يحيىٰ بن أبي كثير-أيضًا ـ: «لا يُستطاع العلم براحة الجسم».

فبالصَّبر يُخرج من معرَّة الجهل.

قال الأصمعيُّ: «من لم يحتمل ذلَّ التَّعليم ساعةً، بقي في ذلِّ الجهل أبدًا».

وبه تُدرك لذَّة العلم.

قال بعض السَّلف: «من لم يحتمل ألم التَّعليم لم يَذُق لذَّة العلم».

ولا بُدَّ دون الشَّهد من سُمِّ لَسْعَةٍ.

وكان يُقال: «من لم يركبِ المصاعب لم يَنَلِ الرَّغائب».

وصبر العلم نوعان:

أحدهما: صبرٌ في تحمُّله وأخذه؛ فالحفظ يحتاج إلىٰ صبرٍ، والفهم يحتاج إلىٰ صبرٍ، وحضور مجالس العلم يحتاج إلىٰ صبر، ورعاية حقِّ الشَّيخ تحتاج إلىٰ صبر.

والنَّوع الثَّاني: صبرٌ في أدائه وبثِّه وتبليغه إلىٰ أهله؛ فالجلوس للمتعلِّمين يحتاج إلىٰ صبرٍ، وإفهامُهم يحتاج إلىٰ صبرٍ، واحتمالُ زلَّاتهم يحتاج إلىٰ صبرٍ.

وفوق هذين النَّوعين من صبر العلم الصَّبر علىٰ الصَّبر فيهما والثَّبات عليهما.

لكلٍّ إلىٰ شَأْوِ العُلا وَثَبَاتُ
ولكن عزيزٌ في الرِّجال ثباتُ

ومن يلزمِ الصَّبر يظفر بالرَّشد.

قال أبو يعلىٰ الموصليُّ المحدِّث:

إنِّـي رأيـتُ وفـي الأيـام تـجـربـةٌ
لـلـصَّـبـر عـاقـبـةً مـحـمـودةَ الأثـرِ
وقـلَّ مـن جـدَّ فـي أمـرٍ تَـطَـلَّـبَـه
واستصحبَ الصَّبر إلا فاز بالظَّفرِ